

## نظرات في أدب المتأخرين

للأستاذ عباس حسان خضمر

—&gt;&gt;&gt;&lt;&lt;&lt;—

الأدب والمعرفة :

منذ احتاج الأديب إلى استكمال عدته من الدراسة والثقافة اضطر إلى استدبار وجوه المكاسب ، ونحى عنه الصوارف ، وراح يمتص رحيق الآداب ليخرجه للناس أدباً مصقياً . واتخذ كثير من الأدباء بعض آدابهم بضاعة نافقة في سوق المدائح ، فطافوا بها على القصور ، وانتجموا النقي ؛ وقد جمل ابن الرومي مكافأة الأديب حقاً لازماً إذ قال :

إن اسرأ فرض المكاسب واغتدى يتعلم الآداب حتى أحكما فكسا وحلى كل أروع ماجد من حرما حاك القريض ونظماً نفة برعى الأكرمين حقوقه لأحق ملتبس بالألأ يحرما فاجتمع لأولئك المال وإحكام الآداب ، على أننا لم نندم من عزف عن ذلك المورد ، وعكف على منهل الأدب ، ينهل منه ويميل ، ويفيض على خاطره ، فيرسله غزلاً وتشبيهاً أو حكمة وفلسفة

وكثيراً ما حاق البلاء بالمتغلبين بالأدب لما شغلهم عن تدبير أمرهم ودفع ما نزل بهم ، حتى عدت « حرفة الأدب » مجلبة للبؤسى وشؤماً على من أدركته ، قال يعقوب الخزيمي :

ما ازددت في أدبي حرقاً أسره إلا تزيدت حرقاً تحته شوم وقرنها شاعر آخر بإجادة الخط ، فشكا من اصطلاحهما عليه : لما أجدت حروف الخط حرفني عن كل حظوجاهت حرفة الأدب أقوت منازل مالي حين ووطنها غنياً سفت الأتلام والكتب ولقد وصل ماجرته حرفة الأدب إلى قصر الخليفة الشاعر ابن المعتز حين قتله المقنن ، وزعم أنه مات حتف أنفه ، فقال علي بن محمد ابن بسام :

لله درك من ميئت بمضيئة ناهيك في العلم والآداب والحسب ما فيه لو ولا ليت فينقصه وإنما أدركته حرفة الأدب قال مؤرخو الأدب : ولما ولي الأمور أولياء من الأعاجم لا يقيمون للشعر وزناً أهملوا الشعراء ، فانصرف هؤلاء إلى الحرف والصناعات ، فكان منهم الجزار والحامى والقصار ، وكثر قولهم في الأشياء التافهة كالسبحة والمخدة والروحة ؛ وعدوا ذلك نزولاً بالأدب

عن درجته وحطاً له في دركاته . وقد رأيت أن هذا ليس صحيحاً كله ، ولئن صح أن الشعر فقد شيئاً ييمده عن ظل المدرحين الوارف — لقد كسب به أشياء ، أولها أن هؤلاء الشعراء — وقد عدموا المدوحين المدقنين من الملوك والأمراء — وجدوا بديلاً أجل منهم وأعود عليهم باللذة الروحية ، وهو سيد الخلق ، فهشت له نفوسهم ، وجملوا بنشدون المدائح النبوية ، وازدهر هذا الفن في قصائد لا تتأخر قيد أنملة عن قصائد الفحول من المتقدمين ، وحسبك ردة البوصيري التي أولها :

أمن تذكر جيران بندي سلم مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم وقد كان من الشعراء ذوى الصناعات المبيشية من أجاد وافقن في القول كأبي الحسين الجزار ؛ وإلى جانب إجادتهم في أغراض الشعر المختلفة برزت صناعاتهم في أشعارهم ، واستخدموا مصطلحاتها في معانيهم ، فأحسنوا وظرفوا ، قال الجزار :

لا تلمني مولاي في سوء فعلى عند ما قد رأيتنى قصاباً كيف لا أرتضى الجزارة ماعش ت قديماً وأترك الآداباً ؟ وبها صارت الكلاب تُرَجِّج نى وبالشعر كنت أرجو الكلابا وكتب إليه النصير الحامى :

ومذ لُزمت الحمام صرت به خلا يدارى من لا يداريه أعرف حر الأسى وبارده وأخذ الماء من مجاربه فكتب إليه الجزار :

حسن التأتى مما يعين على رزق الفتى والمقول تختلف والمبد قد صار في جزارته يعرف من أين تؤكل الكتف على أنه لا يقدم الأدب ولا يؤخره — من حيث القيمة الثانية — أن يكون الأدباء من ذوى الحرف أو من أهل الرياضات

وصف الوُشَّاء التافهة :

رأيت مما عابه مؤرخو الأدب على الشعراء المتأخرين وصفهم للأشياء التافهة. ولست أدري كيف يمد هذا تخلفاً في مضمار الشعراء! كأن مقياس الإجابة في الوصف عندهم أن يكون الموصوف جليلاً ، فن يصف الفيل مثلاً أشعر من يصف المصفور ، لجرد أن المصفور سفيز والفيل كبير ؛ ووامف جبال (المملايا) — طى هذا القياس — أشعر شعراء العلم ولا جدال ... ا

والهبل لأم عنتره القائل :

وخلال المنجاب بها فليس يبارح غرداً كفعل الشارب المترنم

كل عمل فني يقترب من الكمال ، يزاولها الفنان فتكون مزجاً  
تمام جمال الفن . ولقد كان زهير يأخذ شعره بالصنعة إذ كان  
يماود حولياته بالتنقيح والتنقيف ، وتعاقب بمداه شعراء تناولوا  
أشعارهم بالتصنيع والتحسين كالحطايئة وبشار ، حتى كان من  
ابن الوليد وأبو تمام وابن المعتز فالتفتوا إلى الحسنات اللفظية  
والمعنوية وحسن موقعها في الكلام ، فأخذوها في صناعتهم  
الشعرية قصداً ، وكثيراً ما كانت تواتر أسلافهم عفواً ومن فيض  
الخاطر ، وازدادت بها آيات الكتاب وأحاديث الرسول  
أما شعراؤنا التأخرون فقد زادوا فيها وأكثروا منها حتى صارت  
ركناً من أركان الأدب ، وأصبحت غرض كل أديب ، وقد  
ترأى بها الخال حتى جاوزت الألفاظ إلى الأشخاص في البيتين  
الظرفيين الآتين :

وقالوا يا قبيح الوجه تهوى مليحاً دونه السمير الرشاق  
فقلت : وهل أنا إلا أديب فكيف يفوتني هذا الطيباق !  
ولا ينبغي أن يفض المتكاف الرذول من قدر البديع المحكم  
الصنع ، وما البديع إلا مادة زينة كالذهب والأزهار ، يختلف  
الزئج بها باختلاف الصياغة والتنسيق ، وهنا الحد بين  
الصنعة والتكلف .

وكيف يحمل على التخلي عن الصنعة في الآثار الأدبية ؟  
ليس اختيار الألفاظ وإحكام السج وترتيب الأفكار والماني  
صناعة ؟ ولو تخيلنا عنها لما استقام للشعر وزن ولا اطردت  
له قافية .

ويقولون: إن التأخرين كانوا يصنعون في أدبهم ليموضوا فقره  
في الماني . ولو أنهم حقاً شعروا بشيء من ذلك لعملوا على تلافيه ،  
والشعور بالنقص مبدأ الكمال ، كما يقال . ولا يصح الخلط بين  
أدب عصر المهالك وبين أدب المصور السابقة ، فإن الأول كان  
حقاً فقيراً في الماني والأفكار ، بل كان فقيراً في الصنعة نفسها ،  
وكان متكافاً غير مقبول ، وما عنده نتحدث .

وبعد فقد قصدت إلى نفض الغبار عن عمارن في أدب  
التأخرين عدت عليه مساوي ، ولعلني بهذا قضيت بعض حق  
لزمي من التمتع بقراءة بعض هذا الأدب زمنياً لقيت فيه الدنت  
من نبش قبور المخطوطات بدار الكتب المصرية ، وإلى القابعين  
على إحياء الآثار الأدبية يساق الحديث .

عباس عسار فخر

هزجاً يحك ذراعه بذراعه قدح المكب على الزناد الأجدم  
لأنه يصف الذباب فيشبهه في سرجه بالشارب المترنم ، ويمثله وهو  
يحك ذراعه بذراعه بمقطوع اليد مكباً على الزناد ليقده ، وما  
الذباب ؟ وما الأجدم المكب ؟ أو ليسا تافهين حقيرين ؟ !  
وما إعجاب النقاد ومنهم الجاحظ بهذا التصوير ؟ !

ويا ويح امرئ القيس ! ألم يجد غير قلوب الطير المتناثرة ،  
والحشف البالي ، فيبني لها بيتاً فخماً كهذا :

كأن قلوب الطير رطباً وباباً

لدى وكرها العناب والحشف البالي

والمعجب العجيب أن يكون المانيون مؤرخي الأدب  
المحدثين وهم يمانون أن كل شيء يصلح موضوعاً للأدب ما دام  
موضع حسن الأديب وانفعال نفسه ، ولا يهم بمد ذلك أن يكون  
هذا الشيء جبلاً أو غملاً . ثم لننظر ما قال شعراؤنا التأخرون في  
أشياءهم التافهة ، قال شهاب الدين الحلبي في سبحة :

وسبحة مسودة لونها يحكي سواد القلب والناظر  
كأنني عند اشتغالي بها أعود أيامك يا هاجري  
وقال محمد بن سوار بن إسرائيل في مروحة :

ومحبوبة في القبط لم تخل من يد وفي الفرتجة وهما كف الجباب  
إذا ما الهوى المقصور هيج عاشقا أنت بالهوا المدود من كل جانب  
وقال ابن نباتة في دواة فولاذ :

دواة لها جنس الحديد وبأسه وزادت عليه في الندى فهي أبهر  
وكل معناها براعك منشأ ففولاذها في الحالتين مجوهر  
على أنك ترى هؤلاء الشعراء لم يتصدوا لوصف هذه الأشياء  
باستقصاء أجزائها وصفا مقصوداً لذاته ، وإنما استثاروا بها  
خراطيم فأتت بهذه الماني الشعرية الجميلة ، نجاء قولهم متحركا  
نابضاً بالحياة ، لا عيب فيه إلا أنه ليس مقولاً في رضوى ومهلان !

البرييع :

يكاد ينمقد الإجماع على استهجان ما امتلأ به أدب التأخرين  
من ألوان البديع ، فهم يأخذونه جملة واحدة بأن العناية مبدولة  
فيه إلى الزخارف البديعية والتحسينات اللفظية ، مرتبين على ذلك  
انتقاصه وتهجينه وتنفيذ المعلمين منه ، ولما هم يبتغون من وراء  
ذلك صرف الناشئين عن التكاف إلى الاسترسال . ولكنني أقرر  
أولاً أن ثمة فرقاً بين الصنعة والتكلف ، فالصنعة لا بد منها في